المحاضرة الثانية:

دلالات الليل في شعر ابن عبد ربه

المطلب الأول: دلالات الليل في شعره الوصفي:

شهد شعر الوصف خلال فترة حكم بني أمية ازدهاراً ملحوظاً حتى عرفت تلك الفترة بالعهد الذهبي في الأَندلس إذ ظهر هذا الشعر في المنطقة خلال معاناتها من فترة صراع على الإمارة في زمن عبد الرحمن الأوسط ، فاكتسب عدداً من السمات والصفات المتفاوتة والمتأثرة بما يُحيط بها من أحداث. وكذلك أزدهرَّ الشعر الأَندلسي في العصر الذي تلا عصر بني أمية . وهو عصر ملوُك الطوائف. إذ التزاحم بين الحُكام العرب على السُلطة في الأَندلس ورغبة كُل واحدٍ منهم في السيطرة والنفوذ على أكثر الأراضي في الأَندلس، جعلهُم يولون شريحَة الشُعراء اهتماما ، لأن الشعر يُعد من الأسلحة المهمةِ عند العَرب والذي يهمنا من هذا كُلهُ . كيف جاء الوصف في شعر ابن عبد ربه بصورةٍ عامةٍ . ودلالة وصف الليل في شعره الوصفي الذي قالَ في الفترة الزمنية التي عاشها في ظل فترة حُكم بني أمية . و دلالة الليل في شعرهِ الذي مدح فيه حُكام بني أمية . وكذلك الشخصيات من فقهاء وقادة وعُلماء . وغيرهم وهذا ما سأحاول بيانه في هذا الفصل من هذا البحث البسيط .

وأما ما جاء في دلالة الليل في شعر الوصف عند هذا الشاعر، فاستشهد كثيراً في شعره الوصفي بالليل وعناصرهِ . من خلال شعرهِ الذي قال في وصف الطبيعة، وغيرها من الأمور التي وصفها هذا الشاعر . فقال في أحدى قصائده :

لقد سجعتْ في جُنْحِ ليلٍ حمامةٌ فأي أسى هَاجتْ على الهائمِ الصَّبِّ
لكِ الويلُ كم هَيّجتِ شَجواً بلا جَوى وشكوى بلا شكوى وكرباً بلا كربِ
وأسكبتِ دمعاً من جَفونٍ مُشهدٍ وما وقرقت منك المدامعُ بالسكبِ[1]

فدلالة الليل في هذه الأبيات جاءت تدل على الهم والحُزن الذي يطال الإنسان المهموم . والناس في حالة من السكون والنوم ، ففي عتمة الليل تجد الهموم والأحزان طريقها إلى الأنا المنفردة المتوحدة في عزلتها . فترهقها وتثقُلها بالآلام ، وحين تضيق النفس المتعبة بهمومها . تسكب آلامها وأحزانها على صفحة الليل فيتلون بأحاسيسها وانفعالاتها[2]

والدليل على كلامنا هذا هو ما شبه بهِ الشاعر همهُ وحُزنهُ خلال ساعات الليل التي تُعد هذه الهموم من الهموم السوداء التي تضيقُ بالنفس كسواد الليل وكذلك جاء بذكر الحمام وجعلها تسهر الليل كسهر الانسان وتنوح له فتهيج الاشواق والحزن، فيشبه بأنينه وآلامه التي

---

[1] ديوانه ، ٤٨.

[2] ينظر الليل في الشعر الجاهلي ، ١٤٠.

يُعانيها ،والعرب تجعل صوت الحمام مرةً شجعاً، ومرةً غناء . وأخُرى نوحاً . ويُضرب بهِ المثل في الأطراب والشجن[٣]

وكذلك الهم والحُزن والكدر. وقالَ في قصيدة في وصف كلب قَّنصْ :

يختلس الأنفُس باستلابهِ

كَلبٌ يُلقى الوحيَ من كِلابهِ

كأنّهُ الكوكبُ في انصبابهِ

أو قبس يُلقطُ من شهابهِ ....[٤]

ذكر الشاعر هُنا أو في هذه الأبيات الكوكب ويقصد بهِ هُنا ليس الكوكب المتعارف عليهِ كالأرض أو الزهرة أو المريخ . بل ما قصدهُ هُنا الشاعر في هذهِ اللفظة هو الشهاب[٥]

وكما هو معروفٌ إن الشهاب هو عُنصرٌ من عناصر الليل، لأنهُ لا يظهر إلا في الليل الشديد الظُلمة والعتمة . والدلالة في هذا الوصف هو إضفاء نوع من القوة والتميز على هذا الكلب فهو لامع بين باقي أصنافهُ كلمعان الشهاب في الليل الظلماء ، وكذلك لمعَ هذا الكلب دلالة على سرعتهِ . وقوتهِ في الصيد . وكرر الشاعر هذا الشيء وأكدهُ في البيت التالي حين شبهَ كأنهُ قَّبسٌ من شهاب فاستخدم عناصر الليل في بيان قوة وسرعة هذا الكلب ..

وقالَ في وصف امرأة :

يا عجباً من مثلهِ يُعجَبُ بدرٌ بَدا يَحملهُ كوكَبُ

ودَّ بهِ المشرقُ شوقاً إلى رُؤيتهِ لو أنَّهُ مَغربُ[٦]

الشاعر في هذه الأبيات يصف لنا جمال امرأة ، ويُشبه هذا الجمال . وبالتحديد جمال وجهها كجمال البدر في السماء، وهذا التشبيه متعارف لدى العرب ، وكثيراً ما شبهَ الشعراء العرب منذ العصر الجاهلي ، جمال وجه المرأة بالبدر أو القمر بجمال البدر في سماء الليلة الصافية الكثيرة السواد والعتمة ، فالشاعر استخدم أحد عناصر الليل لإيصال معلومة أو حقيقة عن هذه المرأة . بأن جمال وجهها . كجمال البدر. في الليلة الظلماء، وأما عن ذكر الكوكب . أيضاً هُنا لا يقصد الشاعر الكوكب أو كواكب العناصر الشمسية بل ما يقصدهُ هُنا هو: الكوكب من الشيء: معظمهُ ككوب الجيش[٧]

وقال في وصف الخمر:

---

[٣] ينظر ديوانه ،٤٨.

[٤] م.ن ، ٥٩.

[٥] ينظر م.ن ،٥٩.

[٦] ديوانه ،٦٣.

[٧] ينظر مختار الصحاح،٥٨٣،وينظر ديوانه ، ٦٣ .

وحاملَةٍ راحاً على راحةِ اليدِ مُورَّدَة تسعى بلونٍ مورَّدِ

متى ما ترى إلا بريقَ للكأسِ راكعاً تُصلِّ لهُ من غيرِ طُهرٍ وتسجُدِ

على ياسمينٍ كالُّلجينِ ونرجسٍ كأقراطِ دُرٍّ في قضيبٍ زبرجدِ

بتلكَ وهذي فالهُ ليلَكَ كُلَّهُ وعنها فسل لا تسأل الناسَ عن غدِ[٨]

في هذه القصيدة نجد الشاعر في وصفهِ الخمرَ ولذتها للذي يشربها نجدهُ يذكر الليل ولكن دلالة ذكر الليل في وصف الخمرَ . هي بيان مدى ثقل وطول الليل القاسي . ولا يقصد بهِ ساعات الليل بل يقصد ما يحمل الليل من هموم وحُزن وكدر، فبهذه الأمور، يصبح الليل طويلاً وقاسٍ جداً ، يكاد ولا ينتهي، لذلك يستعين الشاعر بالخمرة وما تفعلهُ في جسم الإنسان، بأن تجعلهُ في حالة سُكر وفقدان للشعور بالهم والحُزن ، فيحاول الشاعر نسيان همومهُ وحُزنهُ من خلال الرجوع إلى الخمرة .

وقال أيضاً في الخمرَة :

مُردةُ إذا دارت ثلاثاً يفتحُ وردُها ورد الخدودِ

فأن مُزجت تخالُ الشمسُ فيها مطبقةً على قمر الشعورِ[٩]

ولا نجدُ فرقاً في دلالة استخدام الشاعر لليل في وصفهِ للخمرَ .. بل جاءت بنفس الدلالة في القصيدة الخمرية السابقة ، التي ذكرناها ، فهو يلتجأُ إلى الخمرِ للخلاص من الليل وآلامه، بحيث يقول عندما أشرب الخمر يحسُ بأن النهار قد ظهرَ وتلاشا الليل حاملاً منهُ كُل الهموم والأحزان، والدليل قوله :(تخال) أي تتخيل وتشعر بأن الشمس قد ظهرت وانجلا القمر أي الليل الحزين . فهو كما قلنا يلتجئ للسُكر للخلاص من همهِ وحزنهِ في ليله الطويل الأسود.

وقالَ في وصف الشيب

سوادُ المرءِ تنفدهُ الليالي وإن كانت تصيرُ إلى نفادِ

فأسودهُ يصيرُ إلى بياضٍ وأبيضهُ يعودُ إلى سَوادِ[١٠]

شخصية الإنسان مع استمرار الأيام تنتهي . فمصير الإنسان الموت . وبموته تموت معهُ كُل أخلاقهُ وتصرفاتهُ ويبقى منهُ سوى عملهُ. وذكرهُ بين الناس فمصير الإنسان النهاية والموت وشعرهُ الاسود سيتحول إلى أبيض بفعل الشيب وتقدم العمر به ونظارته ووجههِ الأبيض، وجماله

---

[٨] ديوانه ،٩١.

[٩] م.ن ، ٩٩.

[١٠] ديوانه ، ١٠٢.

سيتحول ويتغير بفعل الأيام وتقدم العمر بهِ[11] ، فالدلالة في ذكر الليل في هذه الأبيات ، هي الزمن أو الدهرُ، فأشار إلى تقدم الأيام والأشهر والسنين على الإنسان بالليل فبتوالي الليالي على الإنسان يتقدم في العمر ، فكُلُ ليلةٍ هي محسوبة عليه يوم من عُمرهِ فبتوالي الليالي يتقدم الإنسان في العمر، فمرحلة شبابهِ ونظارتهِ وقوتهِ الجسدية . ستنتهي ويتحول الشعر الأسود إلى الشعر الأبيض ، ويبدأُ على جسدهِ ووجههِ علامات التقدم في العُمر .

وقال في وصف قصر الخليفة:

ألمّا على قَصرِ الخليفةِ فانظُرا إلى منيةٍ زهراءَ شـــيدت لأزهرا

مزوّقةٍ تستودعُ النّجمَ سرَّها فتحسبُهُ يصغي إليـها لتُخـــــــبرا

هي الزهرةُ البيضاءُ في الأرضِ أُلبست لـها الزهرةُ الحمراءُ في الجوِ مِغفرا

يـودُّ وداداً كُلُّ عضوٍ ومفصـلٍ لمبصرُها لو أنّهُ كان أبــــــصرا[12]

حاول الشاعر إخفاء الجمال والفخامة على القصر الذي هو مسكن الخليفة، وصفهُ ووصفَ محتوياتهُ من البناء والعُمران والحدائق المزينة بما يُعجب العين ويسرُ القلب وجاءت هذه الاضافة بأنهُ جعل هذا القصر كالسماء في الليل الشديد السواد فيهِ النجوم تضيء كقناديل منيرة ، فعندما تكون السماء صافية في الليل وحالكة السواد ، تظهر النجوم بضوئها فيتكون منظراً يسر الناظرين فاستعمل الشاعر أحد عناصر الليل وهي النجوم للإضفاء صفة الجمال على هذا القصر أو أنهُ أرادَ أن يقول ، بأن من يسكن هذا القصر. هو خليفة عادل يجلي ليل المظلوم ويرفع عنهُ الظلم ويعينهُ على قضاء حوائجهِ، فهو كشعلة منيرة يهتدي إليها كل تائه في هذه الأرض ، فهو النجم الامع في الليلة السوداء ، هو المخلص للناس من كُل ضيق قد يقع فيهم من ظلم الدهر لهم .

وقال في وصف المشيب:

نجومٌ في المفارقِ ما تغورُ ولا يــــجري بهـــا فَـــلكٌ يـدورُ

كأن سوَادَ لمَتِهِ ظلامٌ أغـــــــــارَ من المشيبِ عليهِ نورُ

ألا إنَّ القتيرَ وعيدُ صِدقٍ لنا لو كـــــــــان يزجُرنا نذيرُ[13]

يقول إن النجم مهما كان منظرهُ في السماءِ جميلاً ولكن لا بُد لهُ من أن يغيب، بمجرد انقضاء ساعات الليل، فيغور هذا المنظر الجميل ،

---

[11] ينظر م. ن ، نفس الصفحة.

[12] م.ن ، ١١٩.

[13] ديوانه ، ١٣١ .

ولو أن كُل من ينظر إلى حالها في السماء. يضن أنها لا تذهب من السماء فكذلك هو الشيب عندما يُصيب شعر الإنسان فلا يُفارقه ولا يقع الظن بأنهُ يُفارق، ولكنهُ أيضاً يفارق الإنسان بمجرد موتهِ فالدلالة في استخدام الشاعر، لعنصر من عناصر الليل (النجوم) جاء كفلسفة للموت ،وهو تذكير للإنسان ولكُل من يتلقى قصيدتهُ بأن هُناكَ نهاية لحياته مهما طالَ بهِ العمر ، فلا بُد أن يسير إلى القبر فشبهَ الشاعر النجوم بالمشيب، فكذلك النجم يغور بمجرد طلوع النهار، كذلك الشيب يغور بمجرد موت الإنسان،

وقالَ أيضاً في وصف الخمر:

ورادعةٍ بـــــــــــــــأنفاس العبير	**مُقنَّعةِ المــــــــــــــفارق بالقتيرِ**
جَلتهْا الكـــــــــــاسُ فاطّلعت علينا	**طلوعَ الـــــــــــبكرِ في حُلل الحرير**
كأن كؤوســــها يحملنَ مـــــــــنها	**شُمــــــوساً ألبســـــت خِلعَ البدور**
كـــــــأن مِزاجها لمـــّــا تجلّـــت	**بصـــــــــحنِ زُجاجِها نــــــارٌ بنورِ**
كـــــــأنّ أديمَها ذَهــَـــــبٌ عليهِ	**أكـــــــــاليلٌ مــِــــنَ الدُّرِّ النثير[١٤]**

يلتجأ الشاعر في قصائدهِ ، التي يصف بها الخمرَة إلى السُكر للخلاص من ليلهِ. وهمومهِ وأحزانهِ فكلُ القصائد التي مرت بنا في وصف الخمرةَ، نجد أن دلالة استخدام الشاعر لليل أو لاحد عناصرهِ مثل النجوم والقمر ، هو الفرج من انجلاء هذا الليل وعناصره، بما يحملهُ من هموم وأحزان ، وهذا الانجلاء ناتج عن حال فقدان التفكير، ووقف العقل عن التفكير جراء ما فعلهُ الخمر من حالت السُكر التي نتجت جراء شرب الخمر، فيصف لنا أن كؤوس الخمر عندما يؤتى بها إليه كأنها شمسٌ ووصف الكؤوس التي تحملها بالبدور البدور ، الشاعر يلتجأ إلى شرب الخمر والسُكر للخلاص من ليلهِ ، وكذلك دليل على ما يُعانيهِ الشاعر من هم وأحزان وألام .

وقالَ في وصف الشيب:

بدا وضَحُ المشيب على عذارِي	**وهل ليلٌ يكونُ بلا نهار**
وألبَسني النُّهى ثَوباً جديداً	**وجَرّدني من الثوب المُعَارِ**
شَرَيتُ سوادَ ذا ببياضِ هذا	**فبُدِّلتُ العمامَةَ**
وما بعتُ الهوى بَيعاً بشرطٍ	**ولا استثنيتُ فيهِ بالخيارِ[١٥]**

---

[١٤] م.ن، ١٣٣ .

وهُنا نجد أن الشاعر يستخدم الليل كدلالة على أن مهما كان الليلُ طويلاً بهمومه ... وآلامهِ سينجلِ ويظهر النهار من جديد .. فينقشع الليل بكل ما حملَ ويخرج النهار حاملاً معه الأمل والتمني، تمني الخلاص من الهموم والعذاب والكدر ومعنى القصيدة أن الشاعر يقول عندما بلغ مبلغ أهل الحلم والرأي والمشورة لبس ثوب المشيب .. فكأنهما متلازمان ، كما أن الليلَ ملازم للنهار أو النهار ملازم لليل، فيقشع الهموم والعذاب كما قشعَ الشيب الشباب بما يحمل من نزوات وشهوات وملذات فلمتلازمة بين الأثنين حقيقة لا خيال .

ويذكر الشاعر أيضاً كعادته القمر مشبهاً بهِ جمال المرأة كما سرت عادة العرب في ذلك ففي كُل قصائده التي يصف بها المرأة ويتغزل بجمالها، لابد لهُ من أن يذكر القمر أو أحد عناصر الليل كدليل على جمال المرأة ، وأيضاً على جمال القمر أو البدر في السماء في الليلة المظلمة وخصوصاً الليلة الحالكة السواد والشديدة ظلمة. وكدليل على قولنا قول الشاعر في أحدى مقطوعاتهِ:

غزال زانهُ الحُورُ وساعدَ طرفهُ القدرُ
يُريكَ إذا بدا وجهاً حكاهُ الشمسُ والقمرُ
بَراهُ الله من نورٍ فلا جنٌ ولا بشرٌ[١٦]

وقوله أيضاً:

لــــــــم أدرِ جنيٌ سباني أم بشر أم شمسُ ظـــــهرٍ أشرقت لي أم قمر
أم ناظرٌ يهـــــدي المـــــنايا طرفهُ حتى كأنَ المـــــوتِ منه في النظر
يـــــحي قتيلاً مـــــــالهُ مــــن قاتلٍ إلا ســـــهام الطرفِ ريشت بالَحور[١٧]

وقالَ في وصف الرياض :

وما روضـــةٌ بالحزنِ حاكَ لها الندى بروداً من المـــــوشيَ حُمر الشّقائقِ
يُقيمُ الــــدُّجى أعناقها ويُمــــــيلها شــعاعُ الضُحى المستنُّ في كُلِ شارقِ
إذا ضـــاحَكتها الشمسُ تبكي بأعينٍ مُكـــلّـلةِ الأجفانِ صُفرُ الحمالق
حكـــــت أرضُها لونَ السماء وزانها نجومٌ كأمــــــــثالِ النجومِ الخوافقِ

---

[١٥] ديوانه ، ١٣٥.
[١٦] ديوانه ، ١٣٦ .
[١٧] م.ن ، ١٤١.

بأطيـــبَ نَشراً من خـــَلائقهِ التي ل ـها خضـــعت في الحُسنِ زهرُ

وفي هذه القصيدة التي يصف فيها الشاعر روضة من رياض الأَندلس[١٨] ، منبهراً بطبيعة ارض الأَندلس ، أستخدم الشاعر فيها أحد عناصر الليل وهي النجوم ، في دلالة على جمال هذه الروضة التي توازنها وجمالها يضاهي توازن وجمال النجوم الخوافق في السماء وكأنما يصف لنا الشاعر صفاء الليل الداكن . وظهور النجوم وهي تتلألأ في سماء الليل كالمصابيح عندما تُضيء الظلمة فهذه النجوم تُضيء الظلمة التي جاء بها الليل الداكن ،والروضة هذه لجمالها وطبيعتها كأنها مثل هذه النجوم، أي هي بقعة بجمالها ورونقها تشبهُ النجمة المضيئة في الليلة السوداء، هكذا وصف ابن عبد ربه هذه الروضة لكثرةِ وشدةِ أعجابه بهذه البقعة، وكأنما هي نجمةٌ من نجوم الأَندلس.

وقال الشاعر في الوصف أيضاً :

يا طالباً في الهوى ما لا ينالُ وسائلاً لم يُعفَ ذُلَّ السؤالِ

ولت ليالي الصبا محمودةً لو أنها رجعت تلكَ الليالِ

وأَعقبتها التي واصلتُها بالهجرِ لمَّا رأت شيبَ القّذال

لا تلتمسُ وصلةً من ولا تكُن طالباً ما لا يُنالُ

يا صَاحِ قد أَخلفت أسماءُ ما كانت تمنيكَ من حُسنِ الوصالِ[١٩]

في هذه القصيدة دلالة الشاعر في استخدام الليل فيها هي التحسر والندامة على انقضاء ليالي الصبا ، ليالي الشباب والعُمر الجميل ، فالشاعر أرادَ القول بأنه كان يقضي في شبابه حياةً هانئة جميلةً خالية من الهموم والمصائب والأحزان، وكأن هُنا نجد أشاره واضحةً في دلالة استخدام الليل ،وهي أن الشاعر أراد أخبارنا بأنه قضى حياتهُ الشبابية خالية من الأحزان والهموم هانئ العيش لا هم ولا حُزن ، ولكن بعد انقضاء مرحلة الشباب ،وبدءَ مرحلة الشيخوخة والكبر صارَ يعيش أسوء أيام حياته، حياة وليل مظلمة يكسوها الألم والحُزن من الضعف والكبر ما فعلتهُ بهِ الأيام والدهر فيتمنى الشاعر لو أن تلكَ الأيام أي أيام الشباب لو أنها تعود، ولكن هيهاه منها العودة ولا تكن طالباً لشيء صعب المنال لا يتحقق ،كذلك هي ايام الصبا من الغير ممكن عودتها ،هذا ما اراده الشاعر في الابيات السابقة .

---

[١٨] م.ن ، ١٨٤ .

[١٩] ديوانه ، ٢١٣.

المطلب الثاني :

دلالة الليل في شعر المديح عند ابن عبد ربه :

قصائد المدح في الشعر ... هي قصائد كان الشعراء ينظموها شكراً للممدوح على يد أسداها لا يستطيع الشاعر اداء حقها إلا بشعر، ونلاحظ أنّ شعر المدح في الأَندلس قد أزدهر ازدهاراً كبيراً ، حيث كانت سوقه رائجة فيها لوجود التنافس . وغيرها من الامور السياسية والاجتماعية التي كانت دائرة في الأَندلس في ذاك الوقت .[٢٠] وللشاعر الأَندلسي ابن عبد ربه باع طويل في نظم قصائد المدح التي قالها بحق ممدوحه، والمديح عند أبن عبد ربه هو موضوع تشابكت فيه موضوعات أخرى منها وصف المعارك والغزوات الاسلامية ، التي اشترك فيها أمراء الأَندلس أنفسهم ، وفيها صور المقارعة ، والجلاد ، والحرب ، والجهاد وفيها حلاوة النصر ، وبشاشة القيم الإيمانية التي علت راياتها ، بالهمم وما يهمنا في شعره هذا هو دلالة الليل ، وعناصره التي ذكرها الشاعر. في غرض المدح وكيف استعان الشاعر بهذه العناصر لإيصال المعنى الذي أراده بحق ممدوحه إلى المتلقي، والمعروف إن استخدام الليل في مثل هذا الغرض ، هو بيان أهمية الخليفة أو القائد أو الحاكم وبيان ما فعله لأهل بلده ، وما يتمتع به من أخلاق حميدة ، لذلك نجد الشاعر قد يستخدم القمر أو البدر ، لتنبيه الممدوح بأنه مضيء لظلام الدهر ، أو يصفه بالنجوم أو الأشهب ، لبيان أهمية ما قام به الممدوح من أعمال تجعله بارزاً بين أبناء قومه ... ولامع كلمعان النجوم في السماء في الليلة المظلمة السواد.[٢١]

فقال في قصيدة له :

بِجَـــــحْفَلِ تَشَرقُ الأرض الفضاء به ... كالبــــحر يقذفُ بالأمواج أمـــواجا

يَقـــــوَدُه البدر يَســــري في كواكِبِهِ ... عَرمَـــــرماً كســـــوادِ الليل رَجْراجَا

يرون فيـــهِ بُروقَ الموت لامعةً ... ويَسـمعُون بـــه للــــرعْدِ أهـــــزاجا

غـــارتَ فـــي عقـوقي جيانَ ملحمةً ... أبكيت منـــها بأرض الشرك اعلاجا[٢٢]

ففي هذه الابيات نجد إن الشاعر استعان بعناصر الليل ، لإيصال فلسفة جديدة ... حول استخدام الليل في قصائِد المديح فيشبه الشاعر هُنا ممدوحه بالبدر هو القائد الذي حقق انتصارات كبيرة وكثيرة في الأَندلس ، فيقول :

إن القائد الذي هو كالبدر يقود جحافل المسلمين لفتح البلدان الأَندلسية كما يقود البدر الكواكب وهنالك الكثير من الظلم ، هذا ما شبه به العرمرم فالعرمرم هو الكثير من الشيء[٢٣]

---

[٢٠] ينظر الادب الأندلسي من الفتح حتى سقوط غرناطة ،١٣٠ .

[٢١] ينظر ديوانه ،٨٣.

[٢٢] م.ن ، ٧٠.

، فالشاعر لم يجد وصفاً دقيقاً لكثرة الجيش أدق من سواد الليل وكأنه لقوته وانتشاره في الأرض وسيطرته عليها كسواد الليل الذي يغطي الأرض والسماء.

وقال من نفس القصيدة :

تُمـــلا بِك الأرض عـدلاً مثل مامُلئت جَـــوراً وتُوضـــحُ للمـعروفِ منهاجا

يا بـــدرَ ظُلمـــتها يا شمسَ صُبحُتِها يا لـــيثَ حَومتَهـــا إن هائِجٌ هَاجـــا

خـــلقت من جـــوهرِ العِقيان خالـصةً ولـم تكن نُطفةً في الصُلبِ أمشَاجا[٢٤]

وما جاء به الشاعر في هذه الابيات اصرارهِ على موقفه من تشبيه هذا القائد بالبدر المنير الذي ينير ظلام الليل ، أي هو المنير والمنقذ لهذه الأمة الإسلامية من شرور الاعداء وبراثنه ، فأكد الشاعر في هذه الابيات التي هي من نفس القصيدة السابقة الدلالة التي جاء بها من استخدام أحد عناصر الليل وهو البدر لإضفاء نوع من التميز لهذا الممدوح الذي أتصف بشجاعته بالمعارك وبسالته في قيادة جيوش المسلمين في الأَندلس.

وقال في قصيدة أُخرى منها:

الحـــقّ أبلـــجَ واضـــحَ المِنـــهاج والـــبدرُ يُشرِقُ فـــي الظلامِ الدَّاجي

والســـيفُ يـــعدِلُ مَـــيلِ كُـــل مخالفٍ عَمـــيتْ بصـــيرتَه عـــن المـنهاج

وإذا المـــعاقِلُ أُرتـــجت أبـــوابُها فالســـيفُ يفـــتحُ قُفلَ كُل رِتاجِ[٢٥]

في هذه القصيدة يمدح عبد الرحمن الثالث، وشُبه أيضاً بالبدر الذي يشرق في الظلام ، والدلالة في هذا التشبيه هو إن ما فعله هذا الممدوح من اعمال جعلته كالشمعة أو كالنور الذي يذهب عن الناس سواد وظلمة الليل ، فالبدر يضيء الليل الحالك الظلام ، فالممدوح أصبح كالنور الذي يضيء ظلام الناس ، وماعانوه من كبد وظلم وكدر في العيش ، فجعله الشاعر ، كالبدر الذي يشرق في الليلة الظلماء ، وهذا ما أراد الشاعر إيصاله للناس .

وقال في قصيدة :

دعته منى كانت عليه منيةً فترحاً له منها وقلَّ له التَّرحُ

تسربلَ ثوبَ الليلِ خامسَ خمسةٍ فكلّهُم في كلّ جارحَةٍ جرحُ

يودُّون أنَّ الصّبحَ ليلٌ عليهُمُ ونحن نودُ الليلَ لو أنه صُبْحُ[٢٦]

---

[٢٣] ينظر م.ن، ٧٠.

[٢٤] م.ن ، ٧١ .

[٢٥] ديوانه ، ٧٥.

[٢٦] م.ن ، ٨١.

هذه الابيات تسجل احداث معركة وقعت عند حصن بُلاي وسميت المعركة باسم هذا الحصن ... وقادها الأمير عبد الله، جد الأمير (ثم الخليفة) عبد الرحمن بن محمد ابن عبد الله الملقب بالناصر[٢٧] وجاء الشاعر هذه المرة في استخدام الليل كدلالة على الليل نفسه ، فلم يخرج الشاعر هذه الابيات الليل إلى دلالات أخرى بل قصد به ليل المعركة فكما هو معروف عند العرب انهم كانوا في حروبهم، التي كانوا يخوضونها في ايام الجاهلية إنها تخمد في الليل وتتوقف ، ثم تعود المعركة والحرب في النهار [٢] ، فهذا ما قصده الشاعر ، إن جيش الأعداء يتمنون إن النهار لو يتحول ليلاً لكي تتوقف الحرب ويتوقف القتل فيهم في المعركة ، دلالة على قوة جيش الممدوح، ودلالة على قوة هذا القائد الباسل، وفي الجانب الاخر يتمنى هذا القائد وجيشه لو إن الليل يتحول صباحاً لكي تعود المعركة والحرب من جديد ، ويبدأ القتال من جديد للقضاء على العدو ، ويتمنون إن هذه المعركة لا تتوقف ابداً ، وهذا ايضاً دلالة على قوتهم، ولكأنما الحرب بالنسبة لهم رحلة صيد أو نزهة يخرجون إليها، لا يهم القتال مهما طال ومهما كانت قوة وعدد جيش الاعداء الذي يقابلهم. وقال:

بَـــــــدا الهـــــــلالُ جـَـديــداً	**والمـــــــــلكُ غـَــــضٌّ جـَديدُ**
يا نعمــــــــــــةَ اللــهِ زيــــــدي	**ما كـــــــــانَ فيــــــكِ مَـــزيدُ**
(إن كـــــــان للصَـــــوم فــطِرُ	**فــــــــــأنت للــــــدَّهرِ عيدُ)**[٢٨]

وعاد الشاعر في هذه القصيدة من إخراج استخدام الليل وعناصره إلى مخرج اخر ، ودلالة اخرى ، فقصد الشاعر من استخدامه لاحد عناصر الليل وهو الهلال ، إلى أن هذا الممدوح هو كالهلال ،

ولم يُخلق قائد مثله، فهو نادر الوجود ، مثله كمثل الهلال فهو يظهر في الشهر مرة واحدة ،ثم يعود بالاختفاء ثم العودة بعد شهر، فالشاعر هنا يدل على إن هذا الممدوح ما كان يتمتع به من قوة وشجاعة في المعارك ، وكذلك ما كان يتحلى به من أخلاق فاضلة وشهامة وفروسية لا يمكن ان يتكرر في هذا الزمان فمن كان مثله نادرٌ جداً وصعب الحصول على قائد منه في هذا الوقت الصعب ، وخصوصاً في حال كحال الأَندلس وما تمر به من ظروف سياسية قاسية، وكما أن الشاعر وصف الممدوح بالغيث ، لأنه أصل الحياة ، والسبب الأقوى في بقاء رعيته .
وقال ايضاً في قصيدة مدحية :

---

[٢٧] ينظر م.ن ، ٨١.

[٢٨] ديوانه ،١١٤.

هَلا ابتـــــكرتَ لبينٍ أنـــــتَ مُـــبتكرُ هيــــهات يـــأبـــى عليكَ اللهُ والقَدرُ
ما زلـــت أبكي حِذار البـين مُلتــــهفاً حــــتى رثى لي فيك الريـــحُ والمـــطرُ
يـــا بَرْدَهُ من حيا مُزنٍ علـــى كـــبدٍ نـــيرانُها بغلــيل الشَـــوقِ تَســـتَعرُ
الـــيت ألا أرى شمـــساً ولا قـــمـــراً حــــتى أراك فأنت الشمسُ والقــمرُ[٢٩]

يقول محقق الديوان عن هذه القصيدة: (قالَ الحُميدي في جذوة المقتبس ومما أنشدني أبو محمد علي ابن احمد بن حزم ، من شعر ابن عبد ربه وأخبرني أن بعض من كان يألفهُ أزمع على الرحيل في غداة ذكرها ، فأتت السماءُ في تلكَ الغداة بمطر جودٍ، حالَ بينهُ وبين الرحيل فكتب إليه ابو عمر هذه القصيدة)[٣٠]

فكما هو واضح من ذكر المحقق لمناسبة هذه القصيدة ، أن الشاعر استعمل الليل أو عناصر الليل (القمر) كدلالة على أن ممدوحهُ يكفيهِ عن الناس كُلها وعن الدُنيا بحرها ، وشتاها ومطرها ، وكذلك بشمسها وقمرها ، لأنه هُوَ الشمسُ والقمرُ، هُوَ الدُنيا كُلها من كان موجود في رحاب هذا الممدوح ، فلا يحزن بعدُ ، لان هذا الممدوح هُوَ ناصرٌ للمظلومين ، وعوناً لهُم ، ولكن ما حالَ الشاعر من الوصولِ إليهِ كان سبب حزنٍ لأنه لا يستطيع رؤيتهُ.

وله في مديح الناصر لدين الله ، وقد خرج متصيداً أولُ رُكوبٍ لهُ في خلافتهِ إلى منيه البنتي بشرني قرطبة غرة جماد الآخرة سنة ثلاثة وثلاثة مئة في شعر لهُ أولهُ:

شمسٌ بدت من حجابِ المُلكِ أم قمرُ أم برقُ مدجنةٍ يعشى لهُ البصرُ[٣١]

ففي القصيدة دلالة استخدام الشاعر لأحد عناصر الليل (القمر) أيضاً فهو دلالة واضحة كُلَ كلامنا من إن الشاعر أراد من ممدوحهِ بأن يكون نوراً ساطعاً في سماء الأَندلس المظلم مؤنس وحشة الليل مخففاً آلام الناس وما يصبح عليهم من هم وحُزن في الليل الموحش فهو القمر المضيء للناس ليلهم المظلم الموحش.

وقال في قصيدة منها :

يـــا هـــــلالاً قـــــد تجـــــلّى فـــــي ثيـــــابٍ مـــــن حرير
وأمــــــــــيراً بـــِــهوَاهُ قــــــــاهراً كُــــــلَّ أمـــير
ما لـــــــــخدَّيكَ اســــــتعارا حُـــــــــــــمرةَ الوردِ النّــظير؟

---

(٢٩) م.ن ، ١٢٣.

(٣٠) ديوانه ، ١٢٢.

(٣١) م.ن ، ١٢٤.

ورســــــــــومُ الوصـــــــلِ قــــد ألـــــــــبستها ثـــــــــوبَ دثور[٣٢]

أيضاً نجد الشاعر قد استعمل الهلال وهو كما معروف أحد عناصر الليل الذي يستعين بهِ معظم الشعُراء في تشبيهاتهم ، فهو يدُل على أن هذا الأمير كالهلال.

وقال في قصيدة أخُرى:

بدرٌ بَدا من تَحتِهِ أبلَقُ يَحسُدُ فيهِ المغربَ المشرقُ

لمّا بدا للأرضِ مُستبهجاً كادت لهُ عيدنها تورقُ

لو يعلمُ الأبلقُ من فوقهُ لاختالَ عن عُجبٍ بهِ الأبلقُ

يامن رأى بحرَ ندىً زاخراً يحملهُ طرفٌ فلا يغرقُ[٣٣]

دلالة استخدام الشاعر للبدر في هذه الأبيات هي نفس الدلالة التي أخرج إليها قصائدهُ السابقة عندما يستعين بالليل وعناصرهُ في شعرهِ، وهُوَ أن الممدوح هو كالبدر الذي يُنير ليل الرعية، وسينصرهُم في كُلِ حُروبهم التي سيخوضونها ضدَ أعدائهِم وكذلك هو بدر للعالم كُله بل أصبح للناس جميعاً نورٌ يُقتدى بهِ

وقال:

تجددت الدُنيا وأبدت جَمَالها وردّت إلينا شَمسَها وهِلالها

عشية يومِ السبتِ جاءت بنعمةٍ من الله لا يرجو العدو زوالها

بها جَبرَ اللهُ الكسيرَ من العُلا وأدركَ منهُ عثرةً فأقالها

فأشرقِتِ الآفاقُ نوراً وبهجةً ومدت علينا بالنَّعيمِ ظلالها[٣٤]

وقالَ أيضاً في قصيدة أخُرى :

إليكَ يا غُرَّةَ الهلال وبدعةَ الحُسنِ والجمال

مددتُ ما بيَّ إليكَ وجداً فلم ترقَّ ولم تُبالِ

أعاضكَّ اللهُ عن قريبٍ حالاً من الُّسقمِ مثلَ حالي[٣٥]

---

[٣٢] م.ن ، ١٤٣.

[٣٣] ديوانه ، ١٩٢.

[٣٤] م. ن ، ٢٠٢.

[٣٥] م.ن ، ٢١٣ .

وقالَ في أخُرى:

وأتـــــيتَّ آخرهُم وشأوكَ فائتٌ للآخـــــــــرينَ ومدركٌ لـــــــلأولِ

الآنَ سُـــــــــمِّيتِ الخلافةُ باسمها كالـــــــــبدرِ يُقرنُ بالسِّماك الأعزلِ

تأبـــــــى فَعالُكَ أن تُقرَ لآخـــــر مـــــنهُم وجودُكَ أن يكونَ لأولِ[٣٦]

في هذهِ القصْائد السابقة نجدُ الشاعرُ يستعملُ عَناصر الليل وهيَ (الهلال والبدر) ودلالة هذا الاستعمال هيَّ نفس الدلالةِ التي أرادها الشاعر في القصائد التي ذكرناها سابقاً فنُلاحظ على شِعر المَديح في شِعر ابن عبد ربه أنهُ عندما يستَّخدِم الليل وعناصرهُ . فإنهُ يقصدُ بِذلك جعلَ ممدُوحِهُ كالبدر الذي يُضيءُ السماءَ في الليل الهالِك والشديدِ الظلام . فهُوَ يقصدُ إن ممدوحهُ هُو من سَوفَ يكُونُ حَليفاً للانتصارات وشعارهُ النصر أو الشهادة ولا يُرضى بغيرِ ذلك . ولا يخسر معركة أو يَفرّ من حَرب بل هُوَ مُقبلُ بِكُلِ ما آتاهُ الله من قُوةٍ وعزيمةٍ ،لان ممدوحه في هذهِ القصائد هُم من يتصفون بالقوة . والشجاعةِ ورباطة الجأشِ في المعارك والحُروب ، ولا يهمهُم مهما كان عدوهُم قوي وكثير العَدد ، ولا يكترثونَ للأيام مهما طالت على هذه الحُروب.

إعداد المدرس الدكتور

محمد عبد الرحمن محمود

---

[٣٦] ديوانه ، ٢١٥ .